

مظاهر نماذج الاستيعاب القرائي عند عبد الله الغدامي

عمر عباس خضير
كلية التربية - جامعة البصرة

مدخل :

تنطلق نظرية التلقي من إشكالية الذات والموضوع ، وهي إشكالية فلسفية تتأسس على ماهية كلّ منهما ، والحيز الذي يشغلانه - الذات / الموضوع - ضمن مفهوم الوجود والتحقق ؛ ذلك أن التساؤل أفضى لمقاربة نقدية في محاولة الكشف عن النص بوصفه موضوعاً ، والمتلقي بوصفه ذاتاً . إذ يقوم المنهج الفنونولوجي على افتراض أن الموضوع غير مستقل بذاته ، وإنما يتحقق من خلال فعل الوعي الذي تمارسه الذات بشكل مقصود نحو الموضوع .

والذات الواعية هنا ، تقوم بدورها الفاعل في تحقيق وجود الموضوع كما يذهب لذلك (هوسرل)⁽¹⁾، مما ينتج القول بأن الذات الواعية تفعل فعلها في إنتاج الموضوعات التي تمثل بشكل ما تحققاً للوجود⁽²⁾.

وعلى الجانب الآخر يبرز الموضوع سيداً للموقف ، على وفق (مارتن هايدجر) ، الذي كان ((يقصي الذات الإنسانية عن موقع الهيمنة الخيالي هذا))⁽³⁾، مستنداً في ذلك على التفريق بين الوجود والموجود ، ؛ ذلك أن الوجود هو ليس ما يمكن للذات إدراكه فحسب ، بل هو الوجود أيضاً ، والذي يقع خارج إدراك الذات ، ومعه يكون الموضوع _ بوصفه وجوداً _ خارج إمكان إدراك الذات ، بعبارة أخرى فإن ما تدركه الذات هو الموجود ، وهو جزء من الوجود لا كله⁽⁴⁾، وهكذا فإن الذات تصبح عاجزة عن إدراك الوجود ، بمعنى أن دورها يقتصر على النقاط ما يصلها من إشارات دالة على الوجود ، وتكوين صورة ما عنه ، وهنا يتضح إقصاء الذات عن فاعليتها في التحقيق⁽⁵⁾.

مع هذه الإشكالية يطرح النص والقارئ بوصفهما موضوعاً وذاتاً ، فيكون القارئ ذاتاً فاعلة ومؤثرة في إنتاج النص وتحقيق وجوده حسب (هوسرل) ، ويكون النص موضوعاً قائماً بذاته يمنح القارئ ما يمكنه من إدراك جزء منه ، ويقتصر دور القارئ على تلقف الإشارات التي لا تعني كلية النص وحقيقته ، بل تجلٍ من تجلياته على وفق (مارتن هايدجر) .

وبين هذين الرأيين تتداخل الآراء لسد الفجوات وتوجيه الانتقادات التي تطور بدورها النظرة وتطرح رؤية أكثر تكاملاً .

أما ما يعيننا من هذا العرض الموجز لإشكالية الذات والموضوع ، هو أن نظرية التلقي متأثرة بهذه الإشكالية حاولت طرح بعض المفاهيم الإجرائية التي تمكّن من اختزال المسافة بين ذاتية القارئ وموضوعية النص ، وإكساب فعل القراءة وجهاً أكمل بعيداً عن الاعتباطية ، ولقد كانت نماذج الاستيعاب القرائي إحدى هذه المفاهيم الإجرائية التي تتضح خلالها إشكالية الذات والموضوع ، بنموذجها الأمثل (النموذج التفاعلي) الذي يستند لتحقيق النص من خلال فعالية القراءة التي تمارسها الذات الواعية ضمن شروط النص .

وبعبارة أخرى ، فإن الذاتية المفرطة على حد سواء مع الموضوعية المفرطة ، لا يحقق كلاهما إدراك الموضوع ولا يبني الذات الواعية ، وحده النموذج التفاعلي هو القادر على إدراك الموضوع على وفق العلاقات المتوافرة في النص ، والتي تحدد الحيز الذي يتحرك ضمنه القارئ لإنتاج دلالات النص⁽⁶⁾، ومن ثم إدراك الموضوع وبناء الذات الواعية من جديد وبشكل مستمر .

إن العمل الأدبي يكتسب وجوده من خلال علاقة تداخلية بين النص والقارئ ، ومع كون هذه العلاقة تمثل إشكالية بحد ذاتها ، فإن التحول لفعل القراءة يكتسب شرعيته ؛ لكون هذا الأخير يمثل سيروية تفاعلية لإنتاج المعنى ، وعلى وفق ذلك فإن الإشكالية الناتجة من تداخل النص والقارئ ، تجد حلها بوضع القارئ داخل النص⁽⁷⁾، وهذا ما يفسر السمة الأبرز للموضوع الجمالي بأنه ((يتم إدراكه من الداخل))⁽⁸⁾ ، إذ القارئ يحضر لإنتاج المعنى ، الأمر الذي يوضح منذ البداية علاقة النص بالقارئ وعلاقة القارئ بالنص ، على أن ذلك لا يستدعي بالضرورة استلاب النص أو استلاب القارئ ، بل يمنح كلاً منهما حقوقه في عملية إنتاج المعنى⁽⁹⁾، ويضبط العلاقة بينهما خلال سيروية القراءة بوصفها إنتاجاً للمعنى .

وهكذا فإننا نشهد تركزاً لفعل القراءة بوصفها السابق بدلاً من مركزية النص أو مركزية القارئ كلاً على حدة ، ومن هنا أصبح العمل الأدبي ((بناءً للنص في وعي القارئ))⁽¹⁰⁾ .

ومع استحالة القول بتجرد القارئ من تكوينه السيكلوجي ، فإن النص يمارس من خلال علاقاته الداخلية فعالية ضبط عملية القراءة⁽¹¹⁾، لكون هذه العلاقات تمنح أنماطاً لا محدودة من استيعاب النص وإنتاجه ، وهي وإن كانت لا محدودة ولكنها تختلف عن ما يمنحه نص آخر بالضرورة ، وهذا ما يفسر التأثير الذي يؤديه نص ما دون آخر ، وكذا المغايرة في نوع التأثير من نص لآخر⁽¹²⁾.

إن النص لا يمنح قوالب جاهزة لإنتاج المعنى ، بل يتوافر على مجموعة خرائط تمكّن من سيروية تفاعلية بينه وبين القارئ ؛ لتحقيق الاحتمالات الممكنة لبناء المعنى ، وذاتية القارئ مع شروط النص المتوافرة في علاقاته الداخلية هي ما تجعل تلك السيروية فاعلة تجاه رصد الاحتمالات ، وتمكين فعل القراءة من إنتاج نتيجته ، ولذلك تصبح القراءة بوصفها _ فعالية _ منتجة للذات من خلال تثبيط الاحتمالات الكامنة في ذات القارئ وكسر أفق توقعه⁽¹³⁾، وهي بذلك تكتسب أهميتها الكبرى ، ولذلك اكتسب الاستيعاب القرائي أهميته في مقولات التلقي ، وصدر عنها نماذج ثلاثة للاستيعاب القرائي ليتم

رصد الفعالية القرائية وتصحيحها إن لزم الأمر ؛ لتحقيق وجود القارئ داخل النص ، والحد من الذاتية المفرطة التي تتركز على إقصاء النص ، وكذلك الموضوعية التي تمحور النص في فعل القراءة وتقصي الذات عن الموضوع ، وهذا هو أحد أهم العوامل التي قامت عليها نظرية التلقي ، وهنا يصدر عن مقولات التلقي نماذج الاستيعاب القرائي الآتية⁽¹⁴⁾:

• نموذج موضوعية النص

ويستند هذا النموذج إلى النص ويقصي المتلقي عن القراءة الفاعلة ، إذ يبدو أن ما يمنحه هذا النموذج للمتلقي هو التعريف بالأفكار الموجودة مسبقاً داخل النص وبشكل لا يتعدى قراءة الشرح والتعليق فقط ، وهي تنطلق من النص باتجاه القارئ⁽¹⁵⁾، ما يعني أن النص موجود بذاته على مستوى الكينونة ، والقارئ ضيف يحل عليه لياشر البنية الظاهرية منه ولا يوغل في بنياته العميقة المنتجة للإثراء الدلالي والمنطلق لإعادة إنتاج النص ، إنها القراءة التي لا تشعر إزاء مباشرتها بلذة النص .

وهي ليست فعالية بقدر ما هي عمل آلي رتيب يفقد النص والقارئ إمكاناتهما الإبداعية القارة فيهما ، ذلك أن سلب القارئ بوصفه منتجاً يعني بالضرورة تعطيل النص عن فعاليته .

ومع أن النص لا يُقر بمعيار ثابت وقارٍ ، وإنما يباشر دينامية إنزياحية ، لذلك فإن فمباشرته على وفق هذا النموذج تعني بالضرورة معيارية ثابتة إلى حد ما ، فالموضوع البارز من النص لقارئ ما ، يحدد إلى حد كبير آلية إنتاج النص لدى هذا القارئ متوهماً قصور النص عند هذا الموضوع فقط أو بجملة من المواضيع المحددة التي يحددها النص بعيداً عن فاعلية القارئ⁽¹⁶⁾.

إن النص يمارس خدعة الحضور والغياب ، ويقدم في بنيته الظاهرة مستوى موضوعياً معيناً ، ويخايل القارئ عبر مستوياته المختلفة ؛ ليقر بإمكان إحضار الغائب خلف شبكة دلالية معقدة ، وهذا الحضور لا يتم إلا بعد الإقرار بسيروية إنتاج النص بوصفه مقروءاً ، هذه السيروية التي تنبث عن إذعان الذات للموضوع بوصفنا السابق ، وتتجلى عن التوتر القائم بين النص ومتلقيه⁽¹⁷⁾، وإذا كانت علاقات النص تحضر خلال فعل القراءة وتمحور الفعل الكشفي الذي تباشره الذات ، فكيف يمكننا القبول بسذاجة الموضوعية المعلبة مسبقاً للاستهلاك ؟ .

إن ما سبق لا يتعارض ومقولة ((لا شيء خارج النص))⁽¹⁸⁾ فالذات وجدت مكانها في النص عبر علاقة تداخلية تفترض استحالة إنتاج الفعل القرائي والتلقي إلا في حدود تلك العلاقة والحيز الذي تكمن فيه الذات .

إن طبيعة هذه العلاقة تحدد طبيعة التلقي المتراوح دوماً بين الذات / الموضوع ، ويقر البحث أن كشف هذه العلاقة خلال سيروية فعل التلقي قد تكون غير واضحة للدرجة التي يمكن رصدها من المتلقي ذاته إلا بعد إنجاز مرحلة من مراحل التلقي ، والوقوف على نواتج الذات ونواتج الموضوع ، وقد لا يتم ذلك إلا عبر إجراءات نقد النقد ، التي تمثل قراءة واعية أخرى لقراءة القراءة .

كما أن سيادة جماليات التأثير النصي إزاء اشتراط ذاتي ذات أهمية قصوى كالأذائقة ، محكومة إلى حد كبير بجاهزية الذات للتلقي ومدى الخبرة المنفعلة مع النصوص السابقة ، والتي تشكل هيئات هذا الاشتراط⁽¹⁹⁾ وتوطر علاقة التوتر بين الذات والموضوع لتعطي كلمة فصل في طبيعة التلقي .

• نموذج ذاتية القارئ

يرتكز هذا النموذج على القارئ مُقصياً النص ، إذ يمنح القارئ حرية مطلقة في إنتاج المعنى ، دون الاعتداد بما يمنحه النص من دلالات تشير إلى إمكانات إنتاج المعنى ، وهنا تبرز القراءة الإسقاطية كوجه آخر للعملة ، فالنص مباح لاشتواء القارئ ينتهكه كيف شاء ، ومنه ((ظهر مذهب الذاتية في التعامل مع النص ، ويتجلى هذا المذهب عند هولاند وفيش وغودمان))⁽²⁰⁾ .

وبمقاربة لمقولة (سارتر) بخصوص الفعاليات العقلية (فعاليات الإدراك) و (فعاليات التخيل) التي تمارسها الذات ، يمكننا إعطاء صورة واضحة عن فعالية الذات إزاء الموضوع ، إذ يمكن القول أنَّ (فعاليات الإدراك) تتم مقابل موضوع موجود مسبقاً تقوم الذات بإدراكه ، أما (فعاليات التخيل) فلا وجود سابق لها ، إنها جملة أنشطة تتم داخل الذات دون وجود خارجي مسبق لها ، فهي تنطلق من الذات إليها ، على العكس من سابقتها التي تنطلق من خارج الذات إلى داخلها ، ويمكننا أن نكشف عن الطرف الآخر للمعادلة ، إذ إن النص ينطوي على تركيبة معينة هي البنية الظاهرة ضمن مستوى اللغة ، وعلى المعنى الغائب الذي لا تصرح به مستويات اللغة لوحدها ، من هنا تكون الذات حاضرة في (فعاليات الإدراك) لإدراك بنية النص الظاهرة ، وحاضرة في (فعاليات التخيل) لإثراء إمكانات إعادة إنتاج المعنى ، لذا فإن المعادلة تقتضي حضور الذات لفاعلياتها السابقة ، كما تفترض في النص كلا المستويين ، ومعه يمكن التصور بأن (فعاليات التخيل) الموسومة بالذاتية المطلقة لا تستطيع إحضار الغائب في النص لوحدها دون استدعاء فعاليات الإدراك التي تمارس إعطاء تصورات عن بنية النص وإنماء هذه التصورات وصولاً لإدراك كلي للنص في مستوى البنية ، نعم يمكن أن تحضر _ فعاليات التخيل _ الغائب ولكن هذا الإحضار سيكون بعيداً عن اشتراطات النص⁽²¹⁾ ، ومعه ستكون الفعالية القرائية عرجاء تتعزز على مستوى واحد من مستويات النص وفعاليات الذات .

إن ما تقدم يفرضي لتساؤل عن حقيقة الإدراك ، وكيفية تصور عدم تحقق الإدراك سابقاً على التخيل ، بمعنى آخر أنه يُفترض بشكل قاطع أن القراءة الأولى للنص تحمل تصوراً إدراكياً ، فكيف يمكن البرهنة على قراءة تخيلية بعيداً عن فعالية إدراكية ؟

إننا إذ نتكلم عن الإدراك ، نعني به إدراك الذات لكلية النص لا جزئياته فحسب ، فلحظة اصطدام الذات بالنص تحمل تصوراً أولياً لا أقل من جنوسية النص وارتسامات أولية عن دلالاته ، لكن هذا ما

لا يمكن عدّه إدراكاً كلياً لبنية النص التي لا يُختلف على كونها تحمل تراكيبية معقدة وتضم شبكة دلالية تؤسس لقراءات متعددة .

بهذا التصور يمكن الإجابة عن التساؤل السابق ، واستنتاج أن الذاتية تخاتل الموضوعية في نقطة لاحقة على اللحظة الأولى لالتقاء الذات بالموضوع ، إذ يبدو أنها _ الذات _ تمارس ذاتيتها المفرطة مقصية الموضوع ضمن أنشطة التلقي التي تمارسها ، فتكتفي بتصوير جزئي عن النص ، وهنا لا بد أن نعي الفرق بين التصور والإدراك بوصف الثاني فعالية كلية ونشاطاً ملازماً لكل مراحل القراءة وإعادة إنتاج النص⁽²²⁾.

إن ذاتية القارئ تنطلق بحرية تامة من تصور أولي ينقطع عن اللحظة الأولى للالتقاء بالنص أو تصور أولي يلزم فعالية التخيل ، لكنه يبقى تصوراً لا إدراكاً ، وهو ما يمنح الذات كل تلك الأبعاد اللامتناهية من الفعالية القرائية المعتمدة على الذات والمنطلقة منها بعيداً عن الموضوع .

• النموذج التفاعلي

يتأسس هذا النموذج على دحض موضوعية النص وذاتية القارئ المطلقتين ، إذ يعتمد على التفاعل بين النص كموضوع مدرك والقارئ كذات مدركة ، وهو ترجمة للعلاقة التفاعلية بين النص والمتلقي ، ويستند هذا النموذج على (نظرية التصميم) وأهم مسلماتها ((أن الفهم يتأثر بالمعارف المتوافرة مسبقاً لدى القارئ ، وبسياق القراءة (الموقف) ، وبهدف القراءة [معرفة العالم ، وبنية الخطاب] ، وبنظام القراءة [معرفة النظام الكتابي ، والتركيب الدلالي]))⁽²³⁾.

هكذا يبرز النموذج الثالث بصفته مستوعباً لفعل قرائي أمثل يحوز إمكانية قرائية بعيدة عن التطرف لأحد طرفي إنتاج المعنى _ النص والقارئ _ إذ إن التأطر داخل أي من النموذجين السابقين لا يحقق للقراءة فعاليتها المرجوة ، ولا يحضر الموضوع الجمالي الغائب في النص والمعنى المؤجل فيه⁽²⁴⁾.

إن العلاقة التفاعلية المتحققة في هذا النموذج تكتسب مصداقيتها من جملة مقولات نظرية التلقي (كالإستراتيجيات النصية) التي تمنح افتراضات تحقق الرؤية الاتساقية مع معطيات النص⁽²⁵⁾، ووجهة النظر الجواله) التي تؤكد ضرورة الانفعال بين القارئ والنص عبر سيرورة القراءة والفعل الارتجاعي المتحقق دوماً من لحظة التحيين حتى إتمام إعادة إنتاج النص ، وهذا ما يوضح التفاعل بين الذات والموضوع ، ويؤكد التعالق الحاصل والمستديم بينهما .

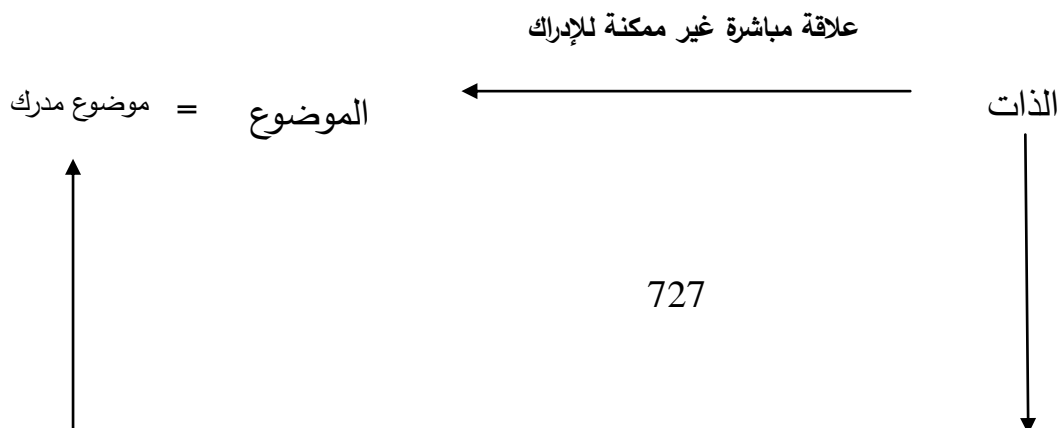
إن المسبقات التي تحملها الذات تؤثر في تلقي الموضوع وإدراكه ، وهذه المسبقات إنما تحصلت من الذات لا كعارض طارئ عليها ، وإنما بوصفها متحققاً مؤثراً في تكوين الذات كما أسلفنا في موضوع سابق ، وبناءً عليه فإن إدراك الموضوع منفعل بإدراكات سابقة لمواضيع شتى كوّنت الذات على نحو معين ، ومما تقدم يتبين مدى التعالق بين النص والقارئ ضمن علاقة الوعي والإدراك والتحقق .

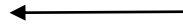
إننا هنا أمام دور فاعل للذات المدركة والمحقة لوجود النص ، النص الذي يكتنز صوراً لا نهائية لتحقيقه عبر الذات المتلقية والمؤولة ، والتي تتم إدراكه عبر مراحل متلاحقة ، إذ لا يتحقق ذلك في تمثلاته الجزئية وتمظهراته في كل لحظة التقاء مع النص ، بل عبر علاقة تواصلية مع تركيبات النص المتتالية والموازية والمتراصة مع فعاليات القارئ المتتالية⁽²⁶⁾ ، ما يمنح القارئ والنص أدوارهما على حد سواء في عملية القراءة .

ويمكننا مداخله ما نحن بصدد ، عبر فرضية مؤسسة على ثنائية الدال / المدلول ، ذلك أن الذات لا تحقق إدراكها للموضوع بالقفز عليه ، فالقارئ يلتقي بالنص لأول وهلة عبر الدال ويتساءل عن مدلوله الحرفي قبل أن ينتقل للتساؤل عن موضعه ودوره في تركيب الجملة المعرفية بكونها وحدة من وحدات النص ، ويعد هذا الالتقاء التقاءً عند مستوى واحد من مستويات النص ، لينتقل بعدها القارئ لعدد من احتمالات الدال متعلقاً بمداليل متعددة تتفتح على وفق تجربة القارئ السابقة على التقائه بالنص ، لتقوده لعملية اختبارية لنواتج الافتراضات (المداليل) والتي يتم بعدها اختباراً معيناً على وفق تراكيبية النص واشتراطاته التي دائماً ما يرجع إليها بعد انتهاء كل مرحلة من مراحل القراءة .

إن نتيجة هذا الاشتغال القرائي تقوده لمدلول يتم اختباره على وفق ما تقدم ليتعرض بدوره للاختبار بوصفه أثراً يدخل في اختيار الذات على وفق تمثيلها الآني لكلية النص ، وهذا الأثر لا يمكن عدّه موضوعاً مدركاً ، إنما ناتج هذه العملية هو ما يعد ذلك الموضوع الذي تم إدراكه من قبل الذات ، وهو النص الذي تمكن القارئ من خلال هذه العملية من إدراكه ، على أن الإدراك يبقى موصوفاً بكونه فعالية لا متناهية . هذا ما يوضح لنا طبيعة إدراك القارئ للنص على وفق النموذج التفاعلي والفعالية القرائية التي تتم على وفقه لتحقيق وجود النص والقارئ .

خطاظة إدراك الذات للموضوع وفق النموذج التفاعلي وعبر ثنائية الدال / المدلول





إن حقيقة التحول النقدي ضمن ما قدمناه سلفاً تكمن في استرسال آليات الناقد من دون وعي في استلاب أحد طرفي العملية الإبداعية بعد إنجاز النص من مؤلفه ، وهو ما يقدم نموذجاً تطبيقياً لانحراف معرفي ضمن المنهج والنظرية ، وإعطاء القراءة النقدية سمة الرجوح من دون توفرها ، وهذا ما سنقف عليه في بعض اشتغالات الناقد (الغدامي).

شكّل النص النقدي السابق على الاشتغالات النقدية المعاصرة جدلية بين الرفض والقبول وهو ضمن هذه العلاقة _ الرفض والقبول _ يرفد المدونة النقدية بسبب مهم من أسباب ديمومتها ، شريطة أن تكون هذه العلاقة مؤسسة على محاوره المقولات النقدية السابقة وهو ما يوفر لها غطاءها المعرفي ، غير أن قبول المقولات النقدية السابقة على أنها من المسلمات دونما تمعن يؤشر تمكّن نموذج

موضوعية النص من الفعالية القرائية ، وهذا ما نجده واضحاً في اشتغال (الغذامي) عند كشفه عن الأنساق ، فهو يورد رأي (الجاحظ) في البداهة وكونها متعلقة باللفظ بقوله : ((لأن المعنى يحتاج إلى التفكير والتدبر ، بينما اللفظ مقوم بديهي))⁽²⁷⁾، وكلامه صحيح ، لولا علاقته بالبداهة ، إذ نجده يربط بين البداهة واللفظ بوصف الأولى قائمة على الثاني ، وهذا ما يحتاج إلى شيء من المناقشة ، فمن الواضح أن البداهة تتعلق بإمكان إيراد المعنى بلفظ من دون الحاجة إلى إطالة التفكير ، فهي _ البداهة _ لا تعني إطلاقاً إيراد اللفظ دون المعنى الجامع .

إن ما يبرز في قراءة (الغذامي) لنص (الجاحظ) النقدي هو نموذج موضوعية النص ، فنص (الجاحظ) سيطر على العملية القرائية دون استدعاء اشتغال قرائي تفاعلي ، معطلاً بذلك ذاتية القارئ ، والمؤدى هو قبول النص طرفاً وحيداً في القراءة والإكتفاء بالنص اشتراطاً أوحداً للقراءة . بينما نجد نموذج ذاتية القارئ حاضراً وبقوة في تأكيد (الغذامي) على معرفة (السياق) و (الجنس الأدبي) للنص ، إذ يقدم مثلاً من قول أبي تمام :

لا تتكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي⁽²⁸⁾

إذ يرى أننا لو عزلنا الشطر الثاني وأوردناه ((في خطاب عادي ، قاصدين بذلك أن السيل لا يحتبس في المرتفعات ، فإن قولنا هذا قول عادي لا يقيم في النفس أثراً جمالياً))⁽²⁹⁾ ، بخلاف ما لو ورد في البيت الشعري أعلاه .

وبالطبع فإن التأكيد على السياق عموماً والجنس الأدبي خصوصاً لا خلاف فيه ، غير أن ذاتية القارئ تبرز في قوله لا يقيم في النفس أثراً جمالياً ، وهنا لا بد من الوقوف لإثبات إقصاء (النص) وحضور القارئ فقط ، إذ إن ما يؤسس النص في داخله هو الجانب التركيبي المرتكز بالضرورة على جملة المكونة له ، بوصف الجملة وحدة مكثفية بذاتها لتشكل دلالي ما ، وما يتعلق بحضور القارئ الواعي الذي يتلقى النص بعد انقطاعه عن مؤلفه ، وهنا يتضح أن الشطر الثاني جملة مكثفية بذاتها ؛ لأنها تشتمل على الدلالة الضمنية التي تؤثر جمالياً في المتلقي .

كما أن الجنس الأدبي وحده لا يقرر أهلية النص وما إذا كان ضمن إشتراطات الأدبية ، ولا أدل عليه من النظم الذي لا يحمل سوى الدلالة الصريحة دونما الدلالة الضمنية .

ويتضح الأمر بشكل أكثر جلاءً بقول (الغذامي) قاصدين بذلك ، وبالطبع فنحن خارج القصدية هنا ، واشتراطها يسلب القول الشعري صفته وميزته ، إذ يقيد بالدلالة الأحادية التي تتوافر في اللغة العملية لا اللغة الشعرية بالتأكيد .

هكذا تبرز القراءة حسب هذا النموذج غير قادرة على سبر أعماق النص والوقوف على سر فاعليته ليقرر المتلقي هنا حكمه المسبق على الجملة الشعرية في الشطر الثاني وتتنظم على وفقه علاقة غير دقيقة بين (الجنس الأدبي) و (الجملة الشعرية) بوصفها تنطوي على صفة الشاعرية ، وما أن يعود الاستيعاب القرائي لنموذجه التفاعلي حتى يصرح (الغذامي) ناقضاً رأيه ، ومؤكداً على صفة

الشاعرية التي يرى أنها أبرز سمات النص الأدبي وأخطرها وأنها قد توجد في ((نصوص لم يقصد منشئوها أن تكون أدباً))⁽³⁰⁾ ، وبغض النظر عن القصدية فالمؤكد أن هذه النصوص التي تتوافر على الشاعرية تعد أدباً وتدخل ضمن الاشتغال النقدي ، إذ إن تحققها لا ينبعث من قصد المؤلف بل من (الإستراتيجية النصية) بحسب (إيكو)⁽³¹⁾.

إن تحقق النص بمعنى وجوده يقتضي تلك العلاقة التفاعلية بين النص والقارئ والتي لا يمكن القول باحتمالها إلا بـ ((الملاءمة بين حدي المعطى [في النص] والمحتمل [عبر القراءة]))⁽³²⁾ وبخلافه فلا وجود لنص ما .

وعلى وفق المعطى والمحتمل يستلزم أن يكون النص متوافراً على معطيات تتيح للقراءة اشتراطها الثاني ، ومع عدمه لا يمكن القول بوجود نص ما ، وأمام تجاوز العلاقة المفترضة بين المعطى والمحتمل يبرز الاستيعاب القرائي ضمن نموذج ذاتية القارئ ، وهذا ما نشهده بوضوح في تناول (الغذامي) لقصيدة (حمزة شحاتة) : (ماذا تقول شجرة لأختيها) ، حيث يرى أن هذا العنوان شاعري ورائع⁽³³⁾ ، وأن القصيدة لم ترق لمستوى هذا العنوان .

غير أن ما يظهر جلياً هو أن العنوان لا يتوافر على معطى يمنحه تلك الصفات من الشاعرية والروعة ، إذ لا يبدو فيه سوى عنونة اعتيادية ، ولعل ذاتية القارئ لم تقف عند هذا الحد ، بل تجاوزت لما هو خارج الاشتغال النقدي من تقديم مبررات للمؤلف بوصف القصيدة كبوة جواد⁽³⁴⁾ ، ((يشفع لشحاتة أنه لم ينشرها بل نشرها مقربون))⁽³⁵⁾ ، إذ تستفحل ذاتية القارئ بنموذجها الاستيعابي لتخرج عن النص إلى ما هو خارجه ، ولتباشر طرح ارتسام أولي للمؤلف ، إننا هنا أمام (لا معطى) داخل النص ، ابتداءً من العنوان ، ومعه فإن شرط تحقق النص الأول معدوم ، وعليه لا يمكن الإشارة إليه داخل الورشة النقدية .

ولأن النسق الثقافي يُكشف من خلال النصوص الأدبية _ كما هو الحال في اشتغال (الغذامي) ضمن النقد الثقافي _ يصبح النسق ناتجاً عن فعل القراءة ومؤسساً على مدى فاعلية هذا الفعل . وتبرز أيضاً نماذج الاستيعاب القرائي واضحة وجلية في الاشتغال النقدي ، ومرة أخرى نحن إزاء نموذج ذاتية القارئ متمثلة بقول (الغذامي) : ((واللغة عند العرب عامل جمع وتوحيد أكثر من العرق))⁽³⁶⁾ ، والبحث يشكك بهذه النتيجة التي خلص إليها (الغذامي) مستنداً إلى الممارسات التي تتعزز على العرق أساساً للتفريق ، كما حدث مع الشعراء المولدين مع ما كانوا يتمتعون به من منزلة ، وأي منزلة ترى أرفع من منزلة الشاعر؟ ، والنصوص الشعرية في تراشق الهجاء على أساس عرقي تطفح بها كتب الأدب والتراث ، كما أن التفرقة العرقية ما زالت سارية حتى يومنا هذا.

هذا ما يدل على ذاتية القارئ في تعامله مع النصوص بوصفها حاملة للأنساق ، فإدراك النص لا يتم إلا من خلال (كلية النص) وأمام كشف الأنساق لا بد من معالجة النصوص الأدبية بوصفها

التكاملي ليتم كشف الأنساق ، أما الاختصار على نصوص معينة وادعاء الأنساق من خلالها فلا يتم إلا بمؤازرة ذاتية مفردة بجانب النص وتدعي ما تشاء بعيداً عنه .

بل إن ذاتية القارئ قد تتطرق أكثر من هذا الحد ، فلا تقف عند إملاءاتها على النص وإنما تخرج عن النص لتؤسس قطيعة معه وتدخل لفعل القراءة بمفردها وبمطلق الحرية ، الحرية المنفلتة القارئة والمؤولة خارج حقل الإيحاء ، وإن كانت القراءة بوصفها ممارسة تفاعلية بين النص والقارئ لا تتم بمعزل عن إدراك الذات القارئة لكلية النص ، فإنها بخروجها عن النص تجهض فاعلية القراءة وتغذي قراءة ذوقية بمفهومها الأحادي ، وإن كان ((لا شيء خارج النص))⁽³⁷⁾ حسب (جاك دريدا) ، فإن خروج (الغدامي) عن نصوص (حمزة شحاتة) وولوجه لسيرته الذاتية تحت عنوان أحداث لها علاقة بالنموذج⁽³⁸⁾ يعد خروجاً على المنهج أولاً وخروجاً على الاشتغال النقدي عموماً ، لاسيما وأنه مقيد بالتشريحية _ كما يسميها _ وهنا ذاتية القارئ تستقصي أبعد مرامي التطرف إزاء النص بإقصائه واستبداله بالمؤلف الذي سبق (للغدامي) أن أعلن قطيعته عن نصه⁽³⁹⁾ .

الهوامش

- (1) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، عبد الكريم شرفي ، الدار العربية للعلوم . ناشرون ، منشورات الاختلاف ، بيروت ، الجزائر ، ط / 1 ، 2007 : 91 .
- (2) ينظر : م.ن : 96 .
- (3) نظرية الأدب ، تيري إيغلتن ، ترجمة ، ثائر ديب ، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ، دمشق ، 1995 : 112 .
- (4) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 107.
- (5) ينظر م . ن : 109.
- (6) ينظر : النص ، السلطة ، الحقيقة - الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة ، نصر حامد أبوزيد ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط / 2 ، 1997 : 96.
- (7) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 182.
- (8) نظرية التلقي ، مقدمة نقدية ، روبرت هوليب ، ترجمة : عز الدين إسماعيل ، كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة ، رقم السلسلة : 97 ، ط / 1 ، 1994 : 214.
- (9) لعبة النص ، مقاربات نقدية في الشعر والسرد ، د. صالح هويدي ، دائرة الثقافة والإعلام ، حكومة الشارقة ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، ط / 1 ، 2007 : 45 .
- (10) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 182 .

- (11) ينظر : نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، د . حسين خمري ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط / 1 ، 2007 : 68 .
- (12) ينظر : العلاماتية وعلم النص ، إعداد وترجمة : منذر عياشي ، المركز الثقافي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط / 1 ، 2004 : 166-168 .
- (13) ينظر : التلقي والتأويل . بيان سلطة القارئ في الأدب ، محمد عزام ، دار الينابيع ، دمشق ، ط / 1 ، 2007 : 53 .
- (14) ينظر م . ن : 53 .
- (15) ينظر : إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، لبنان ، ط / 3 ، 1994 : 31 .
- (16) ينظر : الهرمينوطيقا ومعضلة تفسير النص ، نصر حامد أبو زيد ، مجلة فصول ، العدد : 10 ، المجلد : الأول ، إبريل ، 1983 : 158 .
- (17) ينظر : شعرية الإنزياح ، دراسة في جماليات العدول ، خيرة حمر العين ، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع ، إربد ، الأردن ، ط / 1 ، 2001 : 172 .
- (18) في النقد الثقافي ، محمد حسين الناعي ، الشبكة العنكبوتية .
- (19) ينظر : التأويل ، ف ي خاليزيق ، ترجمة : عمر التتجي ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد : 54-55 ، 1988 : 96 .
- (20) التلقي والتأويل : 53 .
- (21) ينظر العلاقة بين القارئ والنص في التفكير الأدبي المعاصر ، رشيد بنحدو ، مجلة عالم الفكر ، مجلد : 23 ، العدد : 1-2 ، 1994 : 74 .
- (22) ينظر نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث : 24 .
- (23) التلقي والتأويل : 54 .
- (24) ينظر : المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية ، وليام راي ، ترجمة : يوثيل يوسف عزيز ، دار المأمون للترجمة والنشر ، 1987 : 28-29 .
- (25) ينظر : نظريات التلقي ، فرانك شويرويجر ، ضمن كتاب نظريات القراءة ، ترجمة : عبد الرحمن بوعلي ، دار نشر الجسور ، وجدة ، 1995 : 76 .
- (26) مفاهيم هيكلية في نظرية التلقي ، د . محمد إقبال عروي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد : 37 ، 2009 : 63 .
- (27) النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، عبد الله الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط / 4 ، 2008 : 137 .

- (28) شرح ديوان الحماسة ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ، تحقيق : أحمد أمين وعبد السلام هارون ، دار الجيل ، ط 1/ ، 1991 : 745 .
- (29) الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريرية ، قراءة نقدية لنموذج معاصر ، د. عبد الله محمد الغدامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط/ 4 ، 1998 : 13 .
- (30) م . ن : 24 .
- (31) ينظر: وحدة النص وتعدد القراءات التأويلية في النقد العربي المعاصر ، د. إيمان عيسى الناصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 1/ ، 2011 : 88 .
- (32) م . ن : 57 .
- (33) ينظر: الخطيئة والتكفير : 108 .
- (34) ينظر : المكان نفسه .
- (35) المكان نفسه .
- (36) القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة ، عبد الله محمد الغدامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 2/ ، 2009 : 62 .
- (37) في النقد الثقافي ، محمد حسين الناعي ، الشبكة العنكبوتية .
- (38) ينظر: الخطيئة والتكفير : 143 .
- (39) ينظر : م . ن : 150 .